مع غزة

المولدي الأحمر

حراكٌ ضدّ الوعي المزيَّف الذي كرّسه الاستعمار

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «زعزعتُم القناعات القديمة التي تحتمي بها النُّخب المهزومة»، يقول الباحث التونسي في لقائه مع «العربي الجديد»

تونس ـ العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

في هذا الموضوع يشغلني هاجسان: الأوّل هاجس الإجرام الإسرائيلي ضدّ الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيّين في فلسطين بصفة عامّة، مقابل صمت العرب الذين فقدوا قُدرتهم ليس على محاربة «إسرائيل» لتحرير الأرض من الاحتلال فحسب، بل حتى قدرتهم على الرفض الأخلاقي لسلوك المحتلّ، وهذا أمرٌ خطير للغاية لأنّه ذو علاقة بنوع النُّخبة السياسية التي وصلت إلى السُّلطة في إبلدان المؤثّرة في هذه الأحداث، ويطرح تمثّلها لمصالح بلدانها وللعالَم العربي بصفة أعمّ. الهاجس الثاني مسار المقاومة العمّلي ومآلاته، لأنّ نتيجة الحرب على غزّة ستكون فارقة بالنسبة للفلسطينيّين أوّلاً، ثم للمنطقة برمّتها، وكذلك للعالَم الغربي الداعم رسميّاً لـ«إسرائيل» بشكل مُطلق ولا إنساني.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

أصبحت حياتي اليوميّة مشدودة إلى الأحداث، في كلّ لحظة تسمع خبراً جديداً مُفرحاً أو مُحزناً عن المقاومة، عن مواقف الدُّول العربية، عن يقظة الإنسان الحرّ في الجامعات الغربية التي بدأت في قلب مُعادلة الوعي بالحقائق في هذه المجتمعات. إنّ هؤلاء الطّلبة لا يحتجّون فقط على ما يحدُث للفلسطينيّين أصحاب الأرض من إبادة، بل كذلك على الوعي المزيَّف بمضامين العدل والحرّية والديمقراطية المكرّسة من قبل الليبرالية الأداتية الرأسمالية، التي تستعمل مقولات الديمقراطية والحرّية من أجل مُمارسة الاستعمار والإمبريالية. وأودُّ أن أنبّه إلى أنّ هذا الوعي قد يكون سياقياً فقط وسيذهب سدىً إذا لم يجَّر استغلاله على أحسن وجه، لأنّ الرأسمالية الليبرالية ستستخدم العِلم الأداتي من أجل تجاوز هذه الأزمة، وقد تنجح في ذلك، ولو أنّها لن تمحو النتائج على أمد متوسّط. بطبيعة الحال هذا الانشداد إلى الأحداث لم يمنعني من مواصلة أنواع أخرى من الانشغالات التي اعتبرها نضاليّة من منظور استراتيجي، وهي الكتابة النقدية في مجال علم العُمران، كما يسمّيه ابن خلدون، وتكوين الطلبة وتدريبهم في الاختصاص كي يكتسبوا سلاح المعرفة في هذه المعركة المصيرية الشاملة.

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

هو فعّال جدّاً، لأنّ العمل الإبداعي يكون في معظم الأحيان فنّياً ومُبهراً، وهو يكون مُبهراً ومؤثّراً عندما يكون نقدياً، أي عندما يكشف للناس زوايا نظَر كانت محجوبة عنهم بفعل الروتين ونشاط آليات تزييف الوعي. العمل الإبداعي الذي يلقى رواجاً كبيراً يكون عادة مبنيّاً على مبادئ أخلاقية عُليا، وعلى فلسفة تكشف دراما الإنسان بوصفه كائناً ضعيفاً. العمل الإبداعي يعترف بذلك ويكشف عنه ويدين من يتسبّب في أذيّة الإنسان ويدعو بالإيحاء الفنّي إلى حماية الإنسان في ضعفه. لذلك فإنّ مهمّة العمل الإبداعي في مواجهة حرب الإبادة، أنه يكشف، بطريقته الفنّية النافذة إلى الروح، عن الوجه القبيح الآخر لمن يدّعي الديمقراطية والحداثة في المشرق العربي، وهي همجيته وتخلّفه اللذان كان الغرب يُلصقهما بالشعوب التي استعمرها. فـ«إسرائيل» من منظور إنساني متوحّشة ومتخلّفة إلى أقصى حدّ.

> سلاح المعرفة خطيرٌ في هذه المعركة المصيرية الشاملة

> الإمبريالية حرّفت مقولات العدل والحرّية والديمقراطية

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

كلّ مسار في الحياة يصنع تمثّلات صاحبه عن ذاته، لأنّه بقدر ما ينحت الفرد قدراته ومهاراته يصنع ذاته، فلا يتخيّل مصيره إلّا كحصيلة لتجربته، إلّا في الحالة التي تكون فيها التجربة فاشلة تماماً. لذلك من الصعب على الإنسان التفكير في ما كان يُمكن أن يفعله لو لم يكُن على ما هو عليه حاليّاً باستقلال عمّا يُحدثه فيه تأثير التجربة الفِعلية التي عاشها. لكنّني أعتقد أن نقل المهارات من مجال إلى مجال مُمكن إذا توفّرت العزيمة.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أنا لا أنتظر تغييراً، لأنّ هذا فيه استقالة وتسليم بالمصير لمن يغيّر العالَم. التغييرات تحدث في معظمها بفعل عمل الإنسان، «وقل اعملوا»! لذلك يؤسفني جدّاً أن أرى كثيراً من النُّخب السياسية العربية قد استبطنت فكرة أنّها مهزومة وغير قادرة على تغيير العالَم، وهي لا تعترف بذلك، فهي تفكّر بمبدأ أنّ الأسلم - الأسلم لها بطبيعة الحال لأنّها لا تستشير في ذلك شعوبها - هو الركوب في قطارات سائرة حتى لو كانت لا تتبيّن جيّداً وجهتها، صمّمها ويقودُها آخرون تدين لهم بالقوّة. في رأيي، إذا كانت هناك من حصيلة استراتيجية سلبية جدّاً حقّقتها الدول الغربية على حسابنا نحن العرب منذ هزيمة 1967، فهي نزْعُ الطموح الجامح - إلّا من رقابة العقل الشجاع - من النُّخب السياسية العربية. أتألّم كثيراً عندما أرى مبعوثَين سياسيَّين غربيَّين يتكلّمون أمام القادة العرب بلُغة أنّ الفلسطينيّين إرهابيّون ويجب القضاء على قوّاتهم المقاومة وهُم يحرّكون رؤوسهم بسَكينة موافقين على مفردات هذا الخطاب ومضامينه، بينما يقف في المقابل سياسيّون غربيّون معارضون لحكوماتهم الداعمة لـ«إسرائيل» ضدّ هذا الخطاب وهذا الدعم. إنهم لا يرون أبعد من مصلحة حُكمهم التي هي في الواقع هشّة ويُمكن أن يدفرها نفس الحليف المزعوم وبنفس الخطاب. رحم الله الشابّي الذي كان يحضّ الشعب على مقاومة المُستعمِر قائلاً: «ومن يتهيّب صعود الجبال/ يعش أبد الدهر بين الحفر». بطبيعة الحال الطموح، بما هو همّة وتمثّل جريء وحرّ للذات، لا يُنجز شيئاً من دون العقل الرصين والشّجاع في ذات الوقت، وهو مفهوم غائب عن النُّخب السياسية العربية الحاكمة حالياً.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

لا يُمكن مقابلة شخصيّات من الماضي حتى بشكل متخيّل. إنما أستذكر في مجالي المتنبّي شاعراً وابن خلدون مؤسّساً لعِلم العُمران وابن رشد مفكّراً حرّاً. أما من السياسيّين المغاربيّين القدامى فيعجبني طموح قادة قرطاج والمرابطين والموحّدين والفاطميّين. طموحُهم وثقتهم في أنفسهم كانا مُثيرَين للإعجاب، وإنجازاتهم كانت عظيمة، فبفضلهم نحن مغاربيُّون رغم مشاكلنا السياسية الحالية.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

لقد رفعتم رؤوسنا فوقَ ذُلّ قادتنا. لقد دفعتم الكثير الكثير من دمكم ولحمكم وإنسانيّتكم، وأملي ألّا يذهب ذلك سُدىً... بمساعدة عربية!

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

الطموح والحرّية مفتاح العودة إلى التاريخ.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيجوا دارين يكتبوا لي رسالة أو إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

يا دارين العزيزة، ألمك ألمنا وفضيحتنا في ذات الوقت، لكنّكم زعزعتم القناعات القديمة التي تحتمي بها النُّخب المهزومة... وإنّ غداً لناظره قريب.

بطاقة

أكاديمي وباحث تونسي في علم الاجتماع من مواليد 1956. يدرّس حالياً في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بـ«معهد الدوحة للدراسات العليا»، كما شغل منصب رئيس تحرير مجلّة «عُمران» بين عامَي 2015 و2023. من مؤلّفاته: «الثورة التونسية: القادح المحلّي تحت مجهر العلوم الإنسانية» (أشراف وتحرير، 2014)، و«القبيلة في الثورة السورية: المفهوم وقيمته» (2017)، ومن ترجماته عن الفرنسية: «بحث في الهبة» (2011) لـ مارسيل موس.

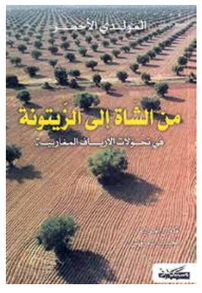

مولدي الأحمر

إضاءة

عن المركزية الأوروبية وإبادة الآخر

«بلوزة» زوكربيرغ

لا يُمكن فصل العبارة عن واقعنا السياسي اليوم، وعن الدور الذي تلعبه «ميتا» وغيرها من شركات الإمبراطورية الحديثة من حروب تدميرية

يزن التميمي

في «عيد ميلاده الأربعين»، ظهر مُؤسّس فيسبوك ورئيس شركة ميتا، مارك زوكربيرغ، مرتدياً «بلوزة» (TShirt) كُتب عليها: «carthago delenda est»؛ وهي عبارة لاتينية يمكن ترجمتها إلى «قرطاج يجب أن تُدمَّر». يَعرف من لديه فكرة عن التاريخ الروماني وأساسيات اللغة اللاتينية - مثل زوكربيرغ وغيره من خرّيجي الجامعات الأميركية - أنّ قائل العبارة هو القائد الروماني كاتو الأكبر، الذي اعتاد أن يختم بها خطاباته المحرِّضة في مجلس الشيوخ الروماني أثناء الحروب البونيقية مع الخصم اللدود لروما: قرطاج، وذلك في الزمن الذي اتّسمت فيه سياسة قرطاج بالرغبة في السلام والاستقرار وتجنّب الحروب مع روما، فكانت الأخيرة تبحث دائماً عن ذرائع للمبادرة بالهجوم وإنهاء هذا «الخطر»، وغرف كاتو بتمثيله هذا التيار المحرّض على الحرب. وفي زمننا إذ تخوض إمبراطوريات حديثة تستلهم تاريخها وأمجادها من الرومان حروباً تدميرية في أنحاء كثيرة من العالم، ويستخدم سياسيوها وإعلاميوها عبارات مقتبسة من كتب تاريخية ودينية للتحريض على مدن وشعوب وأمم، لدعوة العالم كلّه للمشاركة في مسحها من الوجود، كما كان كاتو الأكبر يدعو ويأمل، فليس من المستغرب أن تثير هذه العبارة غضباً وتساؤلات من جهتين هما المستهدفتان لو فُهمت العبارة بشكل مُباشر: سكّان قرطاج الحالية، التي نُحت وازدهرت قروناً طوالاً بعد زوال كاتو وإمبراطوريته، والفلسطينيون الذين يُنادى إلى إفنائهم، ويتفنّن خطباء العالم الحديث بوجوب انكسار مقاومتهم.

أظهر كثير من التونسيّين امتعاضهم من هذه العبارة التي تستهدف مدينتهم، ورأوا فيها إعلاناً مبطّناً للحرب، بينما ربط كثير من العرب العبارة بحرب الإبادة في غزّة، ومع السياسات القمعية التي مارستها منصّات «ميتا» على المحتوى الفلسطيني

> تعكس العبارة وجهاً من أوجه المركزية الأوروبية - الغربية

أو المتضامن معه. يصعب على الإنسان أن يُسخِّف هذه الفرضيات ويتّهم أصحابها بأنّهم ذوو خيال واسع، وأن يشرح خلفيات العبارة والسياق الذي جاءت فيه، كما تنقل وكالات الأخبار التي تشرح الوقائع المعروفة، وهي أنّ زوكربيرغ يستأنس بهذه العبارة لوصف صراعه مع شركة غوغل حين أطلقت منصّة شبيهة بفيسبوك سنة 2016. وقتئذ أعلن فيسبوك وموظّفوه الحرب على غوغل وقرّروا أنّ أنسب طريقة للتعامل مع هذا التهديد لمكاسبهم وامتيازاتهم هي السياسة التي اتبعها كاتو الأكبر، وهي التدمير التام لقرطاج - غوغل. هنا يصير الجنرال الروماني قدوة ومصدر إلهام في ساحة حرب من نوع آخر. ولكن هل يمنع هذا التفسير امتعاض الناس واستهجانهم للعبارة؟

برأيي، لا يُمكن فصل هذه العبارة عن الواقع السياسي للعالم اليوم، والدور الذي تلعبه «ميتا» وغيرها من شركات الإمبراطورية الحديثة، التي تُعلن الحرب التدميرية ضدّ كلّ منافس أو مُعارض يهدّد مصالحها وامتيازاتها. فالاقتباس من قائد عسكري قديم والتماهي مع روايته وتجاهل الطرف الآخر دليل على وجود عقلية مشتركة في التعامل مع الآخر والرغبة في تحطيمه تماماً.

(كاتب فلسطيني مُقيم في ألمانيا)

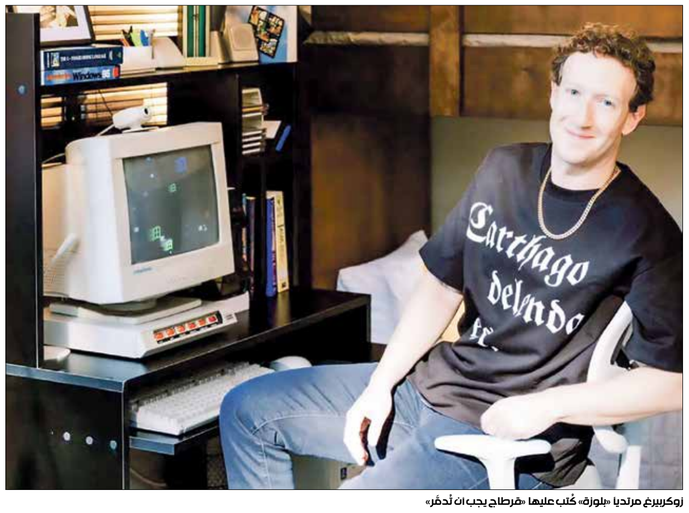
زوكربيرغ مرتديا «بلوزة» كُتب عليها «قرطاج يجب أن تُدمَّر»

النص الكامل على الموقع الالكتروني

قراءة

عزّة طويل القارئ مؤلِّفاً ثانياً

استعارات تشي بالمعنى وما خلفه

نتحرّك جيئةً وذهاباً، إلى الأمام وإلى الوراء، ومن بيروت إلى حمص، من الولادة إلى الوفاة، من السلم إلى الحرب الأهلية في لبنان وسورية

عباس بيضون

تُسمّي عزّة طويل كتابها «لا شيء أسود بالكامل» (2024)، الصادر عن «دار نوفل» في بيروت، نوفيلا؛ أي رواية قصيرة. هذه التسمية قد تُسعف القراءة، وقد تمهّد للنصوص القصيرة التي تتلاحق في الرواية، لكنّها مع ذلك تطرح مبكراً، وربما قبل القراءة، سؤال ماهية النصّ. على الغلاف الأخير تعريفٌ للنصّ بأنّه «ليس رواية تقليدية»، ولن تجازف هذه المؤخّرة بتفسير ماذا تعني بالرواية التقليدية، ولا ماذا تعني بالخروج عليها. ما هو مثال الرواية التقليدية إذاً؟ أظنّ أنّ التسمية لا تنطبق على الروايات الكبيرة البارزة في تاريخ الرواية. ذلك لا يمنع من التساؤل عن طبيعة النمط الروائي الذي في الكتاب، بل إنّنا منذ الفصل الأوّل، وهو لا يزيد عن بضعة أسطر «ستسمع طنيناً ما، طنيناً قوياً، لكنه ضرب طبل ضخم».

من هنا نفهم أنّ الرواية هي هذا الطنين، هي ضربات ذلك الطبل الضخم. لكأنّنا هكذا نبدأ من رواية منتهية، تعود على شكل هذه الضربات. قد لا نعرف إذا كانت هذه الضربات متتالية متسلسلة، إذا كانت كذلك في الزمان والمكان. القراءة الأولى لا تُوحي بذلك. الطنين متقطّع هنا، وهو لا يتحرّك بانتظام ولا بتسلسل بالتالي، ولا يلزم مكاناً واحداً. نحن عند العائلة نفسها، بأجيالها المتتابعة، الأجداد والآباء وربّما الأحفاد. لكنّنا لا نتتبع في استعادتها زمناً أفقياً. نحن هكذا نتحرّك جيئةً وذهاباً، إلى الأمام وإلى الوراء، ومن بيروت إلى حمص، من الولادة إلى الوفاة، من السلم إلى الحرب الأهلية في لبنان وسورية. الرواية قد تكون هي نفسها طوال الوقت، ربما لأنها مفترضة، ولأنّ صوتها هو هو منذ البداية، ومن أجل السياق الروائي، هو صوت واحد. وإذا بدا غائباً فعلينا دائماً أن نفترضه، إلّا حين يدخل على النص صوت آخر، ذلك ما يمكن أن يؤدّي إلى حيرة نستبعدها في افتراض الرواية الأولى، واستعارة صوتها الأساس.

العائلة، في افتراض أيضاً، واحدة، ولو تداخل الأصل السوري مع الفرع اللبناني. أقول افتراضاً لأنّ الواضح أنّ سمة الرواية، وربما امتيازها، أنّها تتيح للقارئ ما يبدو حرّية ما، في إعادة وصل الأجزاء المبعثرة، في جمعها وردّها إلى صورة كبرى مفترضة تبقى مائلة من وراء التفاصيل، على بُعد ما بينها أحياناً، وعلى تفرّقها، وربّما تبعثرها. القارئ هكذا مؤلّف مساعد، مؤلّف ثانٍ، فالرواية لا تمثّل إلّا كما يجمعها في ذلك، وقد يبدو هذا باعثاً على شيء من الحيرة. إذ لا ينهض القارئ إلى دور كهذا إلّا بشيء من الجهد، وبنوع من شغل إرادي يعينه على ذلك ما يمكن أن يسمّيه أسلوباً، أسلوباً بالمعنى الأدبي والخيالي في ذات الوقت.

> تتيح للقارئ ما يبدو حرّية ما في إعادة وصل الأجزاء المبعثرة

نحن هنا أمام كفاءة حقيقية. تكتب عزّة طويل، ليس فقط بلغة ذكية، بنوع من الأدب الذي يضعنا دائماً أمام صور كبرى، واستعارات تشي بالمعنى وما خلفه. الكتابة هكذا هي ما تقرّره، وما توحي به وتفترضه من بعيد، أي أنّ الأسلوب هكذا هو طريقنا لتمثّل ما خلف النصوص، وما يمكن أن يكون الرواية الأم الكامنة من وراء الفصول والصور والأحداث. هذه الكتابة هي ما فوق حدثية، إذ إنّ الوقائع هنا ذات شقّين، سرد للواقع وتعالٍ عنه، تسجيل له واستيحاء منه، ونظْم له أدبياً إلى درجة تحاذي أحياناً الشعر، ولا أعني بذلك الإنشاء الشعري، وإنما الشعر كروح وكرؤية. رواية عزّة طويل هي عبارة عن قطع بعدد الفصول (22 فصلاً). كلّ فصل من هذه يملك درجة من التكامل والاستقلال بنفسه، والاكتفاء بذاته. بحيث قد يخطر لنا أنّ رواية طويل هذه، بفصولها تلك، تبدو قريبة، على نحو ما، من أن تكون مجموعة قصص قصيرة. كلّ فصل قائم بنفسه، في الوقت الذي هو موصول بغيره. من شبهات القصّة القصيرة هذه تتكامل الرواية. هنا نُفكّر ثانية بالقارئ كمؤلّف ثانٍ. مع ذلك نفكّر بجوامع النصوص، هي أيضاً تعمل من ورائها. الفصل الثاني يتكلّم عن جهيش في المرحاض، هذا ما يمكن استعارته كمفتاح للرواية، التي هي، في أن معاً، رواية موت وشقاق عائلي. في أن معاً ليسا فقط مجتمعَين وحاضرَين، لكنّهما أيضاً متناظران متجاوبان. الرواية التي تؤرّخ لميلاد الرواية بمجزرة صبرا وشاتيلا، تضع المجازر قبالة الحب وقبالة الولادة، وقبالة الحنان الأمومي. إذا شئنا أن نعيد تأليف الرواية، ستكون من هذه العناصر المتناظرة المتكاملة، ستكون هناك حياة قاسية كذلك الجهيش في المرحاض، حياة من حُبّ ينقلب على نفسه، من عائلة تخون ذاتها. يمكن أن نتكلّم هنا عن مرثية، يمكن أن يكون في هذه المرثية شعر الرواية.

(شاعر وروائي من لبنان)

عزّة طويل

فعاليات

ضمن سلسلة «ديوان المعمار»، تُنظّم «دارة الفنون» في عمّان، عند السادسة والنصف من مساء الأربعاء المقبل، لقاءً مع المعمارية الفلسطينية **لبنى الصانع** بعنوان **دور المعمار في ديار بئر السبع - النقب**. يستكشف اللقاء أشكال الصمود الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في ظلّ مشاريع الاستعمار الاستيطاني في بئر السبع.

ذاكرة البرتقال، نهى بطشون: عندما تتحوّل الذاكرة إلى فِعل ترميم، عنوان معرض افتتح الأربعاء الماضي في «المتحف الفلسطيني» ببيرزيت، ويتواصل حتى منتصف الشهر المقبل. يضمّ المعرض أرشيف بطشون (1936) الذي يحتوي مجموعة لوحات لفنّانين فلسطينيّين، وصوراً فوتوغرافية بعضها التُقط في العشرينيات بمدينة يافا، إلى جانب وثائق ومتعلّقات شخصية للعائلة قبل النكبة.

يشترك الفنانان القطري مبارك آل ثاني والعراقية **ريم البحراني** (الصورة) في معرض **منظورات حضارية** الذي افتتح نهاية الشهر الماضي في «غاليري المرخية» بالدوحة ويتواصل حتى الثاني عشر من الشهر المقبل. يشكّل العمران الثيمة الأساسية في أعمال الفنّانَين في سياق تعقيد الهوية وتحوّلات الانتماء إلى المكان.

حتى نهاية الشهر المقبل، يتواصل في متحف «قصر طوكيو» بباريس معرض **ذِكر قلقٌ** الذي افتتح في منتصف شباط/ فبراير الماضي. يتتبّع المعرض تاريخ تضامن الفنّانين ضد الامبريالية من الستينيات إلى الثمانينيات، وهو يتمحور حول بحوث أُجريت عن **المعرض التشكيلي العالمي من اجل فلسطين** الذي افتُتح عام 1978.